

التعددية والتعايش الثقافي في ضوء الشريعة الإسلامية

الدكتور عبد الله عبد المنعم العسيلي
أستاذ ومحاضر في جامعتي الخليل والقدس المفتوحة

فلسطين 2012

الحمد لله القائل: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [هود: آية 118-119]، والقائل: { لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ } [المائدة: آية 48]، والصلاة والسلام على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ قال مُحَدِّثًا: ”إن بني إسرائيل افتقرت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة؛ كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة“¹، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن ظاهرة التعدد الثقافي من السُّنن الإلهية في الكون؛ وهي من أبرز المظاهر على إنسانية الإسلام، حيث إن تنوع الثقافات واختلاف اللغات وتباين الأفكار أمرٌ يُقرّه الشرع، فلا تفاضل بين الناس في أجناسهم وألوانهم وأصولهم وأممهم وشعوبهم، إلا في التقوى، قال تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ } [الروم: آية 22]، وهذه الرؤية العقدية هي من صنع رب العالمين الذي خلق الإنسان ويعلم حقيقته وحاجاته إلى الالتقاء والتحاور والتجانس، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات: آية 13]، وليست ردّة فعل لأحداث أو ثورات سياسية، ولا استجابة لضغوطات من القوى الاستعمارية.

وبالرغم من وحدة دعوة الأنبياء إلى توحيد الله، إلا أن الله راعى الفروقات بين الأمم والشعوب؛ فكان لكل أمة شريعته ومنهجها الخاصان، فأبناء آدم متعدّدون في تكويناتهم النفسية والفكرية والمادية، وكذلك المجتمعات كلها لديها تفصيلاتها الفكرية والجماعية والفردية والجغرافية والسياسية.

1- أخرجه ابن ماجة، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، باب: افتراق الأمم، 1322/2، دار الفكر - بيروت. قال الألباني: حديث صحيح، وجاء في «مجمع الزوائد»: بأن إسناده صحيح، ورجاله ثقات. يُنظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، 226/6، 1407هـ، دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي - القاهرة وبيروت.

جاء النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - برسالته الخالدة، ودعا إلى التعايش مع أصحاب الثقافات والشرائع المتعددة، وتاريخ المسلمين والعرب تاريخ حافل بنماذج برز فيها التعدد والتعايش الثقافيّين بين البشر، وهذا يستلزم ضرورة الاعتراف بأن الآخرين موجودون، بحيث يَتِمُّ الاطّلاع على ثقافات الغير والإقرار بحقوقهم المشروعة، دون المداهنة أو التسليم بصحة دينهم.

والأمر في هذه القضية كان محلّ اهتمام الإسلام والمسلمين عبر العصور؛ لكنّ حرّية التعايش الثقافية ليست مُطلقة، فالحرية المُطلقة مَفسدة مُطلقة؛ لذا وُضعت الضوابط والمعايير التي تدعو إلى أخذ ما ينسجم وتعاليم الإسلام، مع ردّ ما يتعارض والدّين ورَفَضُ المعتقدات الباطلة، وإجراء التعديلات اللازمة لوسائل المدنية، وما مبدأ التسامح الدّيني مع أهل الكتاب وغيرهم في تاريخ المسلمين الممتد إلّا نموذجٌ لأصالة التعايش السّلمية، التي يعرف فيها المواطن ما له وما عليه، دون تسفيه أو طعن أو تجريح لعقائد الآخرين، بل حوار بالتّي هي أحسن ودعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

ويهدف الباحث من خلال هذا البحث إلى بيان مفهوميّ التعدّدية والتعايش الثقافيّين؛ من حيث النشأة وضوابط التعايش والأدلة عليه، وكيفية التعامل مع القضية في ظلّ عصر العولمة الكونية، التي طغت فيها ثورة المعلومات والاتصالات، فصار الكون قرية صغيرة، يستمع أهلها إلى أفكار بعضهم ويطلّعون على ثقافات غيرهم بطريق أو بأخرى، شاءوا أم أبوا، وليس أدلّ على ذلك من التأثير الذي أحدثته التقنيات الحديثة في ظل ثورات ما يُسمّى بالربيع العربي.

واقتضت طبيعة البحث اتباع المنهجين الاستقرائي والاستنباطي، مع تقسيم البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة: وتضمنت أهمية البحث، وهدفه، والمنهج المتّبع فيه، وهيكله.

المبحث الأول: حقيقة التعددية الثقافية، وفيه ثلاثة مطالب:
المطلب الأول: نشأة التعددية الثقافية، ومفهومها.
المطلب الثاني: مقاصد التعددية الثقافية بين الإيجابيات والسلبيات.
المطلب الثالث: موقف الإسلام من التعددية الثقافية.

المبحث الثاني: التعايش الثقافي وضوابطه، وفيه ثلاثة مطالب:
المطلب الأول: مفهوم التعايش الثقافي، وضوابطه.
المطلب الثاني: نماذج إسلامية للتعايش الثقافي.
المطلب الثالث: أثر العولمة على التعايش الثقافي اليوم، ودور المسلمين نحو القضية.

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

حقيقة التعددية الثقافية

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نشأة التعددية الثقافية، ومفهومها.

المطلب الثاني: مقاصد التعددية الثقافية بين الإيجابيات والسلبيات.

المطلب الثالث: موقف الإسلام من التعددية الثقافية.

المطلب الأول

نشأة التعددية الثقافية، ومفهومها

أولاً: نشأة التعددية الثقافية

إنَّ الثقافة مصطلح حديث الاستخدام؛ يُعبّر عن سلوك الأمة وعقيدتها؛ وهو تلك المعرفة العملية المكتسبة، التي تنطوي على جانب معياري، وتتجلى في سلوك الإنسان الواعي، في تعامله في الحياة الاجتماعية مع الوجود¹، وهذا يعني أنَّ الثقافات تختلف وتتعدّد باختلاف الأمم والشعوب، مِن زمن آدم _ عليه الصلاة والسلام _ إلى أن يرث الله الأرضَ وَمَن عليها؛ وذلك راجع إلى تباين العقول والأفهام، وتعدّد الشرائع والمِلَل، واختلاف الأزمنة والأمكنة والواقع.

وقد عَرَفَ التاريخُ الإنسانِيَّ الثقافةَ اليونانية، والثقافة الرومانية، والثقافة الهندية، والثقافة المصرية الفرعونية، والثقافة الفارسية إلى غير ذلك من الثقافات، وَلَمَّا استلم العرب زمام القيادة الفكرية والثقافية والعلمية للبشرية في القرن السابع للميلاد، واستمروا في مركزهم المتميّز إلى القرن الخامس عشر منه، عرف العالمُ الثقافةَ العربية الإسلامية في أوج تألقها، حتى إذا ما تراجع العرب والمسلمون عن مقدمة الركب الثقافي العالمي، ودبَّ الضعف في كيانهم، وتوقفوا عن الإبداع في ميادين الفكر والعلم والمعرفة الإنسانية، انحسر مدُّ ثقافتهم، وغلب عليهم الجمود والتقليد، وضعفوا أمام تيارات الثقافة الغربية التي أثّرت بقوةٍ في آدابهم وفنونهم وطرق معيشتهم². وفي الولايات المتحدة، تقول إليزابيتا غاليوتي: بدأ استخدام مصطلح التعددية الثقافية خلال الثمانينيات؛ للإشارة إلى مجتمع مثالي يمكن لثقافات متنوعة فيه أن تتعايش باحترام متبادل، بعيداً عن سيطرة الاستبداد، وكانت التعددية الثقافية طموحاً لدى مَنْ يُمثّلون أو ينطقون باسم الأقليات المختلفة؛ لأنها تضيف الشرعية

1- يُنظر: الثقافة الإسلامية، مجموعة من الباحثين، 20، ط: 1996/1م، منشورات جامعة القدس المفتوحة، أم السّماق _ عَمّان.

2- يُنظر: مَعْلَمَةُ الإسلام، أنور الجندي، المجلد الأول، 524 _ 225، 1980م، المكتب الإسلامي _ بيروت. بحث بعنوان: الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلامية في إطار الرؤية المتكاملة، د. عبدالعزيز بن عثمان التويجري، ضمن مؤتمّر: الإسلام والغرب في عالم متغيّر، وذلك على الموقع الإلكتروني: islamtoday..

على انتمائهم الثقافي المختلف وتمنح الاعتراف بخصائصهم الثقافية المتميزة، ويجري التشديد على توحيد واندماج كل الجماعات في أمة واحدة¹.

ويلاحظ الباحث أنّ الانصهار في المجموعة الغربية المهيمنة من جانب، يحصل مع التمييز والعزل المتواصلين ضد الأقليات من جانب آخر؛ كما في التمييز الحاصل مع المجموعات الأفرو-أمريكية، وهذه السياسة عارضتها الأقليات المتضررة، لا سيما الأفرو-أمريكية، أضف إلى ذلك سياسات القمع التي تنهجها الولايات المتحدة والقوى الاستعمارية ضد الشعوب الضعيفة والدول النامية؛ لنهب خيراتها وإلزامها بالثقافة الغربية، من خلال القتل والتشريد وبثّ روح الفتنة.

ثمّ أين هي التعددية الثقافية الحقيقية في ظلّ سياسات الكبت والملاحقة والمنع لحقوق المسلمين في المجتمعات الغربية؟! حيث يُمنع الحجاب في كثير من المناطق كفرنسا، ويمنع رفع الأذان، وتصدر كثير من الرسومات المسيئة لنبي الرحمة -صلى الله عليه وسلم- ويقوم قسّ أمريكي بحرق المصحف عدّة مرّات، وتُمتّهن المساجد، ويُساء إلى الأعراس، إلى غير ذلك من أشكال العنصرية غير المتناهية.

*- أمّا بالنسبة إلى التعددية الثقافية في عهد الإسلام؛ فالنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما استقر في المدينة أسس نظاماً عاماً أساسه التعايش السلمي، وبالمصطلح الحديث: "المواطنة"، أو "السلم الأهلي" أو مفهوم "قبول الآخر"، وهذه المفاهيم أقرّها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ونيّف، ورغم ذلك تتعالى أصوات أرباب الغزو الفكري ومن يقتات على موائدهم من المحسوبين على المسلمين، حيث يتّهمون الإسلام ويحاكمونه دون فهمٍ لما يُحاك حولهم.

إنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- وجد في المدينة مزيجاً إنسانياً متنوعاً من حيث الدّين والعقيدة، والانتماء القبلي والعشائري، وتمط المعيشة؛ فهناك المهاجرون من قريش، والمسلمون والوثنيون واليهود من الأوس والخزرج، وقبائل اليهود الثلاث، بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، والأعراب الذين يسكنون أهل يثرب، والموالي،

1- يُنظر: مقالة بعنوان: التعددية الثقافية، إليزابيتا غاليوتي، المنشورة يوم الأحد، 2010/5/23م، ترجمة: حارث القرعاوي، على

الموقع: <http://www.resetdoc.org>.

والعبيد، وغيرهم من الطوائف والأقليات المختلفة.

وبالمصطلح الحديث: مجتمع فسيفسائي، ك بعض البلاد الإسلامية، التي يقتتل أهلها، فكيف وَفَّقَ النبي _صلى الله عليه وسلم_ بين هذه الانتماءات؟ وبين هذه الاتجاهات وتلك المِلَل؟ بين المؤمنين؟ وبين الوثنيين؟ وبين المشركين؟ وبين المُوَحِّدين؟ هذا الذي نحن في أمس الحاجة إليه؛ لمواجهة عدونا.

فَهَذِهِ العناصر من القبائل، والطوائف، والمذاهب، والمِلَل، والأحرار والعبيد، والموالي، والأعراب، كانوا مُوزَّعين على التجارة، والصناعة، والزراعة، والرعي، والصيد والاحتطاب، وكانوا يسكنون على هيئة قرى، أو آطام، أو حصون تحيط بها البساتين والأراضي المزروعة، يدخلون حصونهم بعد حلول الظلام، ويحرصون على حماية منازلهم خوفاً من الغزو والغارات¹.

واستمر الأمر على ما هو عليه؛ تعدُّد واختلاف وأحزاب وحركات ومذاهب شتَّى، منها ما هو شرعي وفيه رحمة بالأُمَّة؛ وليس أدلّ عليه من المذاهب الفقهية التي نشأت وتطوّرت مع انتشار الكتابة، ومنها غير ذلك؛ كالزنادقة الذين طغت عليهم العصبية والكُره للإسلام وحُبّ الطعن في عقيدة المسلمين.

واليوم طغى الاختلاف على جميع ميادين الحياة؛ فَنَشَأُ ما يُسمَّى بالاتجاه المعاكس، والرأي والرأي الآخر، والأحزاب والحركات والمنظمات، ومنها ما راعى آداب الاختلاف، وكثيرٌ ما أساء آخرون، حتى جنحوا وابتعدوا عن الجادة، وهذا ما أشار إليه النبي _صلى الله عليه وسلم_ حين حذّر وبين خطر الاختلاف الممقوت أو غير المحمود.

1- يُنظر: مُحَاضَرَة ضَمِنَ فَهْم السيرة النبوية؛ بعنوان: مفهوم التعايش السلمي، د. محمد راتب النابلسي، بتاريخ 2006/12/9م،

على الموقع: <http://nabulsi.com>.

ثانياً: مفهوم التعددية الثقافية

التعددية الثقافية تعني: وجود مكان يَصُمُّ جماعات بشرية مختلفة؛ من حيث الشرائع والثقافات والقوميات والأجناس والأعراف والأفكار والتيارات والطُّرُوحات، ضمن إطار تنظيمي اجتماعي وقانوني وسياسي؛ يضمن مَنع تَعَدِّي أيِّ فئة على الأخرى، ويمُنحها حقَّ المُواطنة¹.

وهذه التعددية تجلّت في عصور الإسلام الزاهرة، وهي من مظاهر التسامح الإسلامي مع غير المسلمين؛ وهي قائمة على الإقرار بأنّ: البشر مختلفون في أفكارهم ومعتقداتهم، ولهم الحق في العيش بأمان دون فرض للآراء، أو إجبار على اعتناق المعتقدات.

والتعددية السُّلمية لا تعني قبول الظلم من الغير، أو المداهنة وتَخَلِّي المرء عن معتقداته والتهاون بشأنها في سبيل إرضاء الآخرين؛ فالتسامح إنما يكون في باب "المعاملات الإنسانية" التي يشترك فيها جميع البشر من بيع وشراء وأخذ وعطاء، لا في باب "المعتقدات الدينية"²، مصداقاً لقوله I: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}³، أي أنّ على المسلم أن يعترف بحقوق الآخرين، وهذا لا يستلزم أو يستوجب ضرورة الإقرار بصحة دينهم.

ـ ومبدأ التعددية الثقافية يتضمّن عناصر، من أهمها:

أ. الاعتراف بالشعب ككيان واحد، بدون علاقة للاختلافات القائمة بين المجموعات

1- يُنظر: محاضرة عامة بعنوان: المواطنة في إطار التعددية الثقافية، د. صابر أحمد عبد الباقي، المنشورة بتاريخ: 2009/1/8م،

على الموقع: <http://kenanaonline.com>.

2- يُنظر: الموقع: <http://www.almeshkat.net>.

3- سورة المجادلة، آية: 22.

المكوّنة له.

ب. قبول وجود آراء ووجهات نظر مختلفة، والاعتراف بحق المجموعات في أن تعبر عن المختلف بينها، والتنظيم في أطُر مختلفة؛ لضمان حقوقها والعمل لتحقيق مصالح الأمة.

ج. الاعتراف بحق مجموعات مختلفة في المجتمع بالاتحاد في مجموعة واحدة.

– ومن أهم أقسام التعددية التي يُمكن استنباطها من التعريف¹:

1. التعددية الدينية، وهي التي تختص بالتعدد في العقائد والشرائع والمناهج المتصلة به. وتعني الاعتراف بوجود تنوع في الانتماء الديني في مجتمع واحد أو دولة تضم مجتمعاً أو أكثر؛ كوجود اليهودية والنصرانية بالإضافة إلى الإسلام في ظل المجتمع الإسلامي.

2. التعددية المذهبية، وهي التعدد المذهبي في إطار الدين الواحد، حيث يوجد تنوع في الانتماء المذهبي في مجتمع واحد أو دولة تضم مجتمعاً أو أكثر؛ كمذاهب أهل السنة الأربعة، ومذاهب الشيعة.

3. التعددية السياسية؛ وتعني: مشروعية تعدد القوى والآراء السياسية، وحقّها في التعايش وفي التعبير عن نفسها، وفي المشاركة في التأثير على القرار سياسياً في مجتمعها.

1- يُنظر: مقال بعنوان: الجماعات الإسلامية بين قبول التعددية ورفضها، د. محمد الرميحي، ضمن مجلة الكويت، بتاريخ:

2005/9/1م.

المطلب الثاني

مقاصد التعددية الثقافية بين الإيجابيات والسلبيات

قبل الحديث عن مقاصد التعددية الثقافية، يجدر بالباحث التعريف بمقاصد الشريعة؛ للوصول إلى فهم المراد بالمقاصد.

مقاصد الشريعة: (الغايات التي وُضعت الشريعة لأجل تحقيقها؛ لمصلحة العباد)⁽¹⁾، ومقاصد الشرع في خلقه تنحصر في حفظ خمسة أمور: "الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال"، وأهمُّ مرحلة لحفظ هذه الأمور تُسمَّى بالضروريات، ثم الحاجيات، ثم التحسينيات⁽²⁾.

ويُطلق بعض العلماء على مقاصد الشريعة مصطلح "الحكمة"، وهي: "المصلحة المترتبة على الحكم"، أو: "المقصود من شرع الحكم"، بمعنى ما يترتب على التشريع من مصلحة أو دفع مفسدة⁽³⁾.

وبناء على ما سبق، فالتعددية لها حسناتها، وعليها سلبيات، وسأعرض الجانبين؛ إذ بضدها تتميز الأشياء

أولاً: إيجابيات التعددية الثقافية:

يُمكن من خلال التعددية الثقافية الحصول على منافع⁽⁴⁾، منها:

1- يُنظر: نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، 19، ط: 4/1416هـ-1995م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - فيرجينيا.

2- يُنظر: ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، 110، ط: 6/1422هـ مؤسسة الرسالة - بيروت.

3- يُنظر: المستصفى في علم الأصول، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، 329/1، ط: 1/1413هـ دار الكتب العلمية - بيروت. الإحكام في أصول الأحكام، أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد الأمدي، 137/3، ط: 1/1418هـ-1997م، دار الفكر - بيروت. روضة الناظر وجنة المناظر، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: د. عبد العزيز عبد الرحمن السعيد، 335، ط: 2/1399هـ جامعة الإمام محمد بن سعود - الرياض. إجابة السائل شرح بُغْيَةِ الأمل، محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، تحقيق: القاضي حسين أحمد السياغي والدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل، 199، ط: 1/1986م، مؤسسة الرسالة - بيروت. تحليل الأحكام في الشريعة الإسلامية، عادل الشويخ، 120-124، ط: 1/1420هـ-2000م، دار البشير - طنطا.

4- يُنظر: موقع الأمم المتحدة: www.un.org. وكلمة للدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - في كلمة ألقيت بالنيابة عنه في افتتاح قمة الأديان العالمية والتقليدية في أستانا عاصمة كازاخستان في 2012/5/30م. مقال بعنوان: التعددية والتعايش بين الأديان، حسن بحر العلوم، في جريدة المواطن،

1. التعرف على الثقافات الأخرى في المجتمع؛ من حيث العادات، والتقاليد والقيَم؛ فالحِكمة ضالة المؤمن، أُنِيَ وجدها، فهو أحقُّ الناس بها.
2. الاعتراف بأن أصحاب الثقافات الأخرى مُركَّب هام وجزء لا يتجزأ من المجتمع؛ حيث يَتِمُّ الحوار معهم حتى تعرف كُلُّ مجموعة بحقوقها.
3. الموازنة بين الثقافات المختلفة في المجتمع في الحقوق والواجبات لأهل المناطق؛ فلا يوجد مركز وضاحية في المجتمع على حساب الضواحي الأخرى.
4. الاحترام المتبادل بين الثقافات في المجتمع الواحد، وتطوُّر النقد الذاتي والتحقيق الذاتي للفرد والثقافة في المجتمع.
5. إعطاء فرصة جديدة تضمن وتحقِّق الحريات المُنضبطة واحترام حقوق الإنسان، والتوظيف على أساس الكفاءة، حتى لغير المسلمين، إلّا في الوظائف السيادية أو العليا التي تمسّ بكيان الدولة ووَرد النهي الشرعيّ فيها.
6. تعزيز القدرة على الإبداع والتواصل على الصعيد العالمي والوطني والإقليمي، لا سيما من خلال اعتماد شراكات بين القطاع العام والخاص والمجتمع المدني، انطلاقاً من توجُّه يقوم على التأصيل والانفتاح، ضمن ضوابط الرقابة والمحاسبة، والدعم العادل.
7. وينبغي أن يساهم الأخذ بناصية تكنولوجيا الإعلام والاتصالات في مواكبة المستجدات العلمية على الصعيد العالمي، كما يجب أن تساهم الترجمة، في تشجيع التفاعل والتبادل الثقافي ونقل المعارف والتقنيات الحديثة، خاصة تلك المتعلقة بتقنيات المعلوماتية والنهوض بالمووروث الثقافي.
8. تفعيل الطاقات الإبداعية المتوفرة لدى الشباب المسلم، وذلك بِتَوْحِّي سياسة ثقافية يقظة ترصد الإنتاج الثقافي في العالم الإسلامي، وتحلل مكوناته، وتضمن توثيقه والارتقاء به إلى صناعة تزيد جودته وثراء وتعطيه قيمة مضافة.
9. توفير الظروف الملائمة لمساعدة المبدعين على تثبيت موقعهم؛ كَمُنْتَجين أحرار في المجتمع مؤهَّلين للاعتماد على ذاتهم، وإيجاد مجالات جديدة توفر لهم موارد

ذاتية.

10. تعزيز التلاقي والتفاعل الثقافي بين المبدعين في الدول الإسلامية ونظرائهم من البلدان الأخرى، ودفع حركة الإبداع وضمان المشاركة الناجعة والمتوازنة للمبدعين في مختلف الأنشطة الثقافية.

11. رعاية المواهب الواعدة من الشباب في مختلف البلدان الإسلامية، والعناية بالمادة الثقافية الموجهة للأطفال واليافعين من حيث المضمون والوسائط الثقافية المستخدمة، بما يضمن تهيئتهم وتمكينهم من شتى أدوات التحصين الذاتي، ويُسهّل اندماجهم في مجتمع المعرفة، وتدريبهم على استثمار الذكاء وتوظيفه.

ثانياً: سلبيات التعددية الثقافية⁽¹⁾:

للتعددية الثقافية مساوئ ينبغي الحذر منها؛ حتى تؤتي التعددية ثمارها، ومنها:

1. التعددية الثقافية يمكن أن تؤدي إلى تفكيك المجتمع، والقضاء على وحدته والنسيج الاجتماعي بداخله؛ فيصبح المجتمع كالفسيخ، لأن لكل ثقافة عاداتها وتقاليدها ومط حياتها.

2. التعددية الثقافية يمكن أن تؤدي إلى عدم استقرار اجتماعي وفوضى اجتماعية؛ بذريعة أنه لا يوجد قوانين موحدة لكل الثقافات بسبب الاختلاف في القيم والعادات، فلا توجد ثقافة صحيحة أو ثقافة سائدة، ولا قيادة واحدة.

3. التعددية الثقافية تساعد في انغلاق كل ثقافة على نفسها وتكوين إطار خاص بها، بعيداً عن الإطار المشترك "الدولة أو المجتمع الواحد"، فينتج "عدة دويلات في دولة واحدة" وهذا يؤدي إلى تفكيك الإطار المشترك الذي يُدعى "دولة واحدة للجميع".

وهذا الواقع ملموس في العراق الذي أصبح دويلات، وفي فلسطين _أي في الضفة وغزة_ وفي مصر، ومعظم الدول العربية، وذلك بصنيعةٍ غربية وتنفيدٍ أيدٍ عربية

1- يُنظر: المراجع والمواقع السابقة نفسها.

خفيّة، على الرغم من التغيير الجذري في ظل ثورات الربيع العربي.

4. التعددية الثقافية قد تؤدي إلى صراع عنيف بين الثقافات، عند المحاولة لخلق قوانين موحدة ودستور موحد للدولة والسيادة فيها، وربما قد ينتهي الأمر بحرب أهلية.

والواقع المصري اليوم خير شاهد على القضية؛ حيث الصراعات المُفتعلة بين المسلمين والأقباط، وبين الأحزاب السياسية ، حيث لا يروق للكثيرين أن يستلم المسلمون القيادة، ولو بالطرق الديمقراطية التي ينادون بها.

موقف الإسلام من التعددية الثقافية

إنّ فكرة التعددية الثقافية أو تعددية الأديان لا تتعارض مع النصوص الشرعية في الإسلام⁽¹⁾؛ كقوله I: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}²، وقوله I: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}³.

ويقول الشيخ القرضاوي: "هناك دين مقبول عند الله I_ وأديان غير مقبولة، كما أن الحقيقة لا تتعدد وإنما هي حقيقة واحدة؛ وهو الإسلام الذي بعث الله تعالى به الأنبياء من لدن نوح _عليه السلام_ إلى محمد صلى الله عليه وسلم".

واستدرك بقوله: "إلا أنه ليس معنى كون الإسلام هو الدين الحق، هو عدم وجود أديان أخرى غير الإسلام؛ وذلك لأن القرآن الكريم يقول: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا}، فالآية أشارت إلى أن غير الإسلام ممكن أن يكون ديناً، وكقوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}⁴، وهم وثنيون، وكقوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ}⁵، مؤكداً أن الدين الآخر له حق العيش على الرغم من الاعتقاد بطلانه. وأكد القرضاوي أن: "القرآن الكريم أقر فكرة التعددية الدينية، واعتبرها بمشيئة الله عز وجل، فالله I_ هو الذي شاء أن يكون البشر على هذه الوتيرة، ومشية الله _عز وجل_ لا تنفصل عن حكمته سبحانه وتعالى؛ لأن المشيئة هي مقتضى الحكمة الإلهية. وقد ذكر الشيخ القرضاوي دليلين على التعددية الثقافية. أولهما: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} * إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}. (سورة هود، 118، 119)، فالبشر متغايرون في الفكر والإرادة فلا بد أن يتغاير موقفهم من الأديان. وثانيهما: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}. (سورة يونس، آية: 99).

1- يُنظر: موقف العلامة الدكتور يوسف القرضاوي؛ رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، من التعددية الدينية، في حلقة

بعنوان: «التعددية الدينية وقيم التسامح الإسلامي»، في برنامج الشريعة والحياة، يوم الأحد بتاريخ 2008/2/17م.

2- سورة آل عمران، آية: 19.

3- سورة آل عمران، آية: 85.

4- سورة الكافرون، آية: 6.

5- سورة المائدة، آية: 77.

المبحث الثاني التعايش الثقافي وضوابطه

المطلب الأول: مفهوم التعايش الثقافي، وضوابطه

أولاً: مفهوم التعايش الثقافي

بعد بيان مقصود التعددية الثقافية، فإنه يمكن توضيح مفهوم التعايش الثقافي، والناظر إلى كلمة التعايش يلحظ أنها على وزن "تفاعل"، والتفاعل ينبئ بالمشاركة والتعامل مع الآخرين.

وعليه فإنّ التعايش: (ضربٌ من التعاون المشترك الذي يقوم على أساس الثقة والاحترام المتبادلّين، بطوعية واختيار، والذي يهدف إلى تحقيق أهداف يتفق عليها الطرفان أو الأطراف التي ترغب في تقبُّل بعضها)¹.

بمعنى أنّ التعايش قائمٌ على: تعلُّم العيش المشترك، والقبول بالتنوع، بما يضمن وجود علاقة إيجابية مع الآخر، ضمن ضوابط الشرع، دون ترك فُسحة ليؤثّر طرف ما على ثقافة المسلم الصحيحة.

وذلك من منطلق قوله I: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا}².

ثانياً: ضوابط التعايش الثقافي³:

إنّ التعايش المنشود في الإسلام لا يعني بأية حال من الأحوال، تمييع المواقف، وخطط الأوراق، ومزج العقائد وتذويبها وصّبّها في قالب واحد، حتى وإن زعموا أنه

1- يُنظر: مقال بعنوان: التعايش بين الأديان، كيف ولماذا؟، د. محمد شكري زاويتي، بتاريخ 2011/12/28م، على موقع: معاً لبناء السلام: <http://www.tfpb.org>.

2- سورة النساء، آية: 141.

3- يُنظر: ورقة عمل بعنوان: «التعايش في الإسلام... نحو مجتمع متسامح»، د. فهد العوني؛ عضو هيئة التدريس في الجامعة العربية المفتوحة، وذلك في القاعة الثقافية للنادي الأدبي بحائل، بعد مغرب يوم الأحد 1431/5/18هـ على الموقع: <http://www.hailnews.sa>.

قالبٌ إنسانيٌّ في الصميم؛ ذلك أن أصحاب العقائد السليمة لا يقبلون هذا الخلط المريب الغامض، ويرفضون رفضاً بصيراً واعياً أن يُقرطوا في خصوصياتهم ومقوماتهم وقيَمهم، خشية أن يوصفوا بالتعصب، أو حتى يظفروا بصفة التحرر من العقد المركبة.

إن التعايش الذي يَسلب المسلم هويَّته، ويجعل توازنه يختلُّ، وكيانه يهتزُّ، هو ليس بتعايش، وإنما هو غشٌّ، واحتيال، وتضليل.

—أما إذا كان التعايش، بأن يحتفظ كلُّ طرف بدينه كاملاً غير منقوص، ويتشبث بمكوّنات هويته وافرةً غير مثلوبة، كان هو عين القصد، وجوهر التعامل الذي يسعى المسلم إلى إقامته مع غير المسلمين.

إن التعايش بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الأديان، ينبغي أن ينطلق من الثقة والاحترام المتبادليْن، ومن الرغبة في التعاون لخير الإنسانية، في المجالات ذات الاهتمام المشترك، وفيما يمسّ حياة الإنسان من قريب، وليس فيما لا نفع فيه، ولا طائل تحته.

وخُلاصة ضوابط التعايش أنّ للتسامح مع غير المسلمين حدوداً لا يجوز تخطيها؛ فلا يجوز القبول بما من شأنه أن يمسّ عقيدة المسلم، أو يطعن بها، أو يُسيء إلى الإسلام وأهله، وفي الوقت ذاته يُمنع تسفيه الآخرين وتحقيرهم، أو تحقير معتقداتهم، وإنما المطلوب مجادلهم أو حوارهم بالتي هي أحسن.

المطلب الثاني

نماذج إسلامية للتعايش الثقافي

النماذج الإسلامية للتعايش مع غير المسلمين في تاريخ الإسلام كثيرة جداً، سأذكر بعضها لبيان سماحة أهل الإسلام، ورغم ذلك تكثر أيضاً النماذج والصور غير المتسامحة عند مَنْ يتشدّقون بالتعايش ولا يعرفون منه إلا الاسم:

1. مع اليهود: فَبَعْدَ إقامة النبي -صلى الله عليه وسلم- "الدولة" وضع دستور المدينة "الصحيفة"؛ ليحدد حدود الدولة، ومكونات رعيّتها "الأمة"، والحقوق والواجبات لوحدة الرعية، بمن فيهم "العرب وحلفاؤهم العبرانيون"، وليبيّن كذلك المرجعية الحاكمة للدولة ورعيّتها.

وفي هذه الوثيقة الدستورية تحدثت موادها -التي زادت على الخمسين مادة- عن التنوع الديني في إطار الأمة الوليدة والدولة الجديدة، وعن المساواة بين الفرقاء المتنوعين، فقالت عن العلاقة بين المسلمين واليهود: أي عن التنوع الديني في إطار وحدة الأمة: "... ويهودُ أمةٌ مع المؤمنين؛ لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، وإن بطانة يهود كأَنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ -يُهلك- إلا نفسه وأهل بيته، ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصِرٍ عليهم، يُنفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين؛ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم..."².

2. مع النصارى: وضع النبي -صلى الله عليه وسلم- وثيقة ثانية لنصارى نجران -عهداً لهم ولكل المتدينين بالنصرانية عبر المكان والزمان- وذلك عند أول علاقة بين الدولة الإسلامية وبين المتدينين بالنصرانية، وفي هذا العهد الدستوري كتب رسول الله صلى

1- يُنظر: بحث بعنوان «فلسفة الإسلام في التعايش مع الآخر الديني والثقافي»، أ.د. محمد عمارة، ضمن مجلة «جِراء»، العدد التاسع، أكتوبر، 2007م.

2- يُنظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، 15_21، 1956 م، القاهرة.

الله عليه وسلم: ”لِنَجْران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض جوار الله، وذمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدتهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير... أن أحمي جانبهم وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم ومواضع الرهبان ومواطن السياح، وأن أحرس دينهم وملتهم أين ما كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي؛ لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم“¹.

والعالم الإنجليزي ”سير توماس أرنولد“ يشهد للحرية الدينية التي قررها الإسلام وحضارته، والتي وسَّعت التنوع والاختلاف، وأتاحت إنقاذ النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية البيزنطية، حتى ليتمكن القول: إن بقاء النصرانية الشرقية هو ”هبة الإسلام“².

_ وعلى هدي الرسول الكريم في تسامحه الديني ذي النزعة الإنسانية الرفيعة سار خلفاؤه من بعده³؛ فعُمر بن الخطاب حينما دخل بيت المقدس فاتحاً أجاب سكانها المسيحيين إلى ما اشترطوه: من أن لا يساكنهم فيها يهودي، وتحين صلاة العصر وهو في داخل كنيسة القدس الكبرى، فيأبى أن يصلي فيها كيلا يتخذها المسلمون من بعد ذريعة للمطالبة بها واتخاذها مسجداً!

_ وقد شكت إليه امرأة مسيحية من سكان مصر أن عمرو بن العاص قد أدخل دارها في المسجد كرهاً عنها، فيسأله عن ذلك، فيخبره أن المسلمين كثروا وأصبح المسجد يضيق بهم وفي جواره دار هذه المرأة وقد عرض عليها عمرو ثمن دارها وبالع في الثمن فلم ترض، مما اضطر عمرو إلى هدم دارها وإدخالها في المسجد، ووضع قيمة الدار في بيت المال تأخذه متى شاءت، ومع أن هذا مما تبيحه القوانين

1- يُنظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، 123_128.

2- يُنظر: الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد، 729-730، 1970م، القاهرة.

3- يُنظر: فتوح الشام، أبو عبد الله بن عمر الواقدي، 244/1، دار الجيل - بيروت. من روائع حضارتنا، د. مصطفى السباعي، 135، ط: 1/1999م، دار الوراق - بيروت.

الحاضرة وهي حالة يُعَدَّر فيها عمرو على ما صنع، فإنَّ عمر لم يرض ذلك، وأمر ابن العاص أن يهدم البناء الجديد من المسجد ويعيد إلى المرأة المسيحية دارها كما كانت!¹

3. مع أهل الديانات الوضعية: إذ تمَّت معاملتهم معاملة أهل الكتاب؛ فقد بدأ تطبيق دولة الخلافة الراشدة لهذه السُّنة عندما دخل المتدينون بالمجوسية في إطار الرعية الواحدة لدولة الخلافة الراشدة على عهد الراشد الثاني عمر بن الخطاب²؛ حيث عَرَض عمر _t_ هذا الواقع الجديد على مجلس الشورى "مجلس السبعين"، وسأل: "كيف أصنع بالمجوس؟" فوثب عبد الرحمن بن عوف _t_ فقال: "أشهد على رسول الله _صلى الله عليه وسلم_ أنه قال: "سُنُّوا فيهم سُنَّة أهل الكتاب"³.

* وأُحِبُّ أَنْ أَذْكَرَ نموذجاً من الماضي ظهرت فيه أصالة التعايش عند المسلمين، كما ظهر فيه الحقد الدفين عند الصليبيين؛ وهذا النموذج هو نموذج بلاد الأندلس؛ حيث فتحها المسلمون سنة 93هـ وسقطت سنة 898هـ بمعنى أن المسلمين حكموا فيها أكثر من ثمانية قرون، ساد فيها العدل والتسامح الديني مع أصحاب الثقافات الأخرى والديانات السماوية؛ ولا سيما اليهود.

ثم لم يأت قرنٌ على الاحتلال النصراني لتلك الديار حتى لم يبق فيها مسلمٌ واحد، وقد كانوا بضعة ملايين، أُكْرِهَ مليونان على المغادرة، وأَمَّا مَنْ تَبَقَّى فقد أُجِرَ على الكُفْرِ واعتناق النصرانية، ليس ذلك فحسب؛ فقد حوِّلوا المساجد إلى كنائس⁴، وأُحْرِقَت المصاحف والكتب الإسلامية، ومُنِعَ الكلام بالعربية، أو لبس الملابس ذات الطابع العربي،

1- يُنْظَرُ: مِنْ رَوَائِعِ حَضَارَتِنَا، د. مصطفى السباعي، 135.

2- يُنْظَرُ: فتوح البلدان، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تحقيق: رضوان محمد رضوان، 267، 1403هـ، دار الكتب العلمية _بيروت.

3- أخرجه البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، 189/9، رقم الحديث: 18434، 1414هـ، مكتبة دار الباز _مكة المكرمة. قال الألباني: حديث ضعيف، يُنْظَرُ: مختصر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، 248، ط: 1405/2هـ، المكتبة الإسلامية _بيروت.

4- *ملاحظة: قارن هذا الموقف بموقف عمر بن الخطاب من دار المرأة النصرانية التي احتاجها عمرو بن العاص؛ ليكمل مسجداً للمسلمين وحقاً المرأة المالِي محفوظ، وذلك في الصفحة السابقة من هذا البحث، وموقف آخر في القدس أنه تحين صلاة العصر وهو في داخل كنيسة القدس الكبرى، فيأبى أن يصلي فيها كيلا يتخذها المسلمون من بعد ذريعة للمطالبة بها واتخاذها مسجداً!.

وحُظِرَ على النساء لبس الحجاب، وأشدُّ من ذلك أنَّ الأطفال أُخذوا قهراً من آبائهم المسلمين، وقام النصارى بتعميدهم ليكونوا نصارى من أوّل يوم، وحُرِّمَ المسلمون من أداء الشعائر؛ فلا صلوات ولا أعياد ولا صيام رمضان، وكُلُّ هذه الدعوات الهدّامة إنما هي من وراء البابا ورجال الدّين عندهم؛ فقد كان البابا "أوربان الثاني" الذي تولى كرسي البابوية سنة 1088م هو أوّل من نادى بالحروب الصليبية على معاقل المسلمين، وبذلك احتلّت الأراضي المقدّسة من قِبَلِ الدول الغربية، وعاثوا في بلاد الإسلام الفساد¹، وهذا ما أشار إليه القرآن مَوْضِعاً طبيعة حقدهم، حيث قال I: { وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا }²، ولا يخفى على عاقل أنَّ اليهودية الصهيونية كان لها _ولا يزال_ التأثير الواضح على بعض الأطراف المسيحية، تتجلى مظاهرها في مواقف عديدة تصبُّ جميعها في الاتجاه المناهض للحقائق التاريخية، فأتباعهم يؤمنون بأن اليهود هم شعب الله المختار، ويحقّ لليهود التجمّع في أرض فلسطين، وطردها منها، ويتوجب علينا نحن المسلمين، أن ندقق في الأغراض والمرامي التي تنطوي عليها الدعوات التي تصدر عن بعض الأطراف إلى الحوار مع الأديان والثقافات والحضارات، والتي تدعونا إلى التعايش مع أهل هذه الأديان والمنظومات العقائدية؛ حتى لا نكون ضحية للغشّ الثقافي والديني، الذي هو أشدّ خطراً وأقوى أثراً وأسوأ عاقبةً، من الغشّ التجاري والصناعي.

وللأسف فإنّ الحضارة الغربية تتجه إلى التعصب بدل التسامح وإلى التضييق بدل التوسعة وإلى النفور من الأديان والأجناس المختلفة، فها هم يقومون بإعادة نشر الرسوم المسيئة للنبي صلى الله عليه وسلم، فلو كان الغرب يؤمنون بفكرة التعددية الدينية كما يؤمن المسلمون بها لما فعل الناس مثل هذه الأفاعيل، إذ إنّ قضية حرية التعبير شيء والسبّ والشتيمة شيء آخر؛ فليس لأحد تحت اسم حرية التعبير أن يسب ويشتّم الآخرين، وما قضية السود والتمييز العنصري ضدّهم في أمريكا عن أصحاب العقول ببعيدة!⁽³⁾.

1- يُنظر: نحو ثقافة إسلامية أصيلة، أ. د. عمر سليمان الأشقر، 115_117، ط: 2005/12، دار النفائس _بيروت. وذلك بالنقل عن كتاب: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، للدكتور علي عبد الحليم محمود.

2- سورة البقرة، آية 217.

3- يُنظر: موقف العلامة الدكتور يوسف القرضاوي؛ رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، من التعددية الدينية، في حلقة بعنوان: «التعددية الدينية وقيم التسامح الإسلامي»، في برنامج الشريعة والحياة، يوم الأحد بتاريخ 2008/2/17م.

المطلب الثالث

أثر العولمة على التعايش الثقافي اليوم، ودور المسلمين نحو القضية

أولاً: أثر العولمة على التعايش الثقافي اليوم:

تصاعدت المتغيرات الدولية في بداية الألفية الثالثة للميلاد، وتنامت المخاطر التي تهز استقرار المجتمعات الإنسانية، وتهدد الأمن والسلام الدوليين، نتيجة بعض الانعكاسات السلبية لظاهرة العولمة واكتساحها معظم بلدان العالم، وسعيها إلى فرض نماذج سياسية وثقافية تقوم على القوة والهيمنة، وترفض التعددية والاختلاف، أو ترابط العلاقات بين الشعوب والتفاعل بين الثقافات والحضارات المختلفة.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن الإنسانية لا تملك أن تتحرر في الوقت الراهن من ضغوط العولمة الكاسحة للهويات والطامسة للخصوصيات، نظراً إلى حاجتها الشديدة إلى مسايرة النظام العالمي الجديد في اتجاهاته الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية، ومواكبة المتغيرات الدولية في هذه المجالات جميعاً، ولكنها تستطيع إيجاد تيار ثقافي إنساني مضاد يقف في مواجهة روح الهيمنة التي تنطوي عليها هذه العولمة فكرةً ونظاماً، وتطبيقاً وممارسةً، وفي التعامل مع الآثار المترتبة عليها، في انتظار بروز قوى عالمية جديدة ستكون مناوئة للقوة المتحكمة حالياً في مقاليد النظام العالمي، أو على الأقل منافسة لها منافسة الند للند¹. وإن طائفة من علماء المستقبليات ومن الدراسيين الإستراتيجيين، ومعظمهم من الغرب نفسه يذهبون إلى القول بأن تطوراً حاسماً سيقع في ميزان القوى العالمية على المستويين السياسي والاقتصادي في السنوات القليلة القادمة، وسيترتب على ذلك انقلاب جذري في توجهات العولمة، وهو الأمر الذي سيكون تعزيزاً وترسيخاً وإعلاءً لقوى أخرى أكثر عدالة².

وقد عمّقت هذه المتغيرات والمخاطر التي شهدتها القرن الجديد الوعي بعالمية

1- يُنظر: بحث بعنوان: الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلامية في إطار الرؤية المتكاملة، د. عبدالعزيز بن عثمان التويجري، ضمن مؤتمر: الإسلام والغرب في عالم متغير، وذلك على الموقع الإلكتروني: islamtoday..

2- يُنظر: الحوار من أجل التعايش، د. عبدالعزيز بن عثمان التويجري، 69، 1998م، دار الشروق - القاهرة.

العالم ووحده، وازداد شعور إنسان هذا العصر بأنه جزء من عالم أعم وأشمل، وأنه يرتبط بالآخرين من حوله بروابط تاريخية ومعيشية مشتركة، كما ازداد الشعور بأن المشكلات الإنسانية والحضارية والاقتصادية والسياسية والبيئية هي مشكلات عالمية تبحث عن حلول.

ثانياً: دور المسلمين نحو قضية التعايش الثقافي¹:

في ظلّ العولمة الكونية وتطور وسائل التكنولوجيا، ينبغي على المسلمين الاستفادة من كل التقنيات التي تخدمهم وتوصل إليهم المدنية، وتنقل ثقافتهم للآخرين، بحيث تكون منبراً حرّاً، تظهر فيه الجوانب الإيجابية، وذلك من خلال مجموعة من النقاط؛ من أهمها:

1. الاشتراك في جهود علمية ثقافية، تعود بالفائدة على المؤمنين جميعاً، لأن هذه الجهود تصبّ في اتجاه تعميق التفاهم بين أهل الأديان، وإشاعة القيم الإنسانية في أوساطهم، وإقامة جسور للتقارب الإنساني الذي يعلو على التقارب الفكري والثقافي.

2. التعاون بين الأديان في المحافظة على سلامة البيئة، ومحاربة الأمراض الخطيرة، والقضاء على التفرقة العنصرية، ورفع الظلم عن الشعوب والطوائف والفئات التي تتعرض للاضطهاد.

3. ينبغي أن يشمل التعايش بين الأديان العمل المشترك لمحاربة الإلحاد، والانحلال الخلقي، وتفكك الأسرة، وانحراف الأطفال، ومقاومة كل الآفات والأوبئة التي تهدد سلامة كيان الفرد والجماعة، وتضر بالحياة الإنساني.

4. يجب أن يتسع مفهوم التعايش بين الأديان للقضاء على أسباب التوتر واضطراب حبل الأمن والسلام وعدم الاستقرار في أنحاء عديدة من العالم؛ مثل فلسطين، والعراق، وسوريا، وكشمير، والفلبين، وفي مناطق كثيرة في أفريقيا وآسيا،

1- يُنظر: بحث بعنوان: الحفاظ على الهوية والثقافة الإسلامية في إطار الرؤية المتكاملة، د. عبدالعزيز بن عثمان التويجري،

ضمن مؤتمر: الإسلام والغرب في عالم متغير، وذلك على الموقع الإلكتروني: islamtoday..

فيكون العمل في هذا النطاق تعايشاً نافعاً ومُجدياً وذا تأثيرٍ في حياة الناس وواقعهم المعيش، وبذلك يصير التعايش بين الأديان وسيلةً فعّالة لدعم جهود المجتمع من أجل السلام وإقامة العلاقات السليمة بين الشعوب والأمم في ظلّ احترام حقوق الإنسان، وإقرار الحريات الأساسية المنصوص عليها في الإسلام، بالإضافة إلى المواثيق والعهد الدولية.

5. ينبغي أن يتجه التعايش بين الأديان نحو إنصاف المظلومين والمقهورين في الأرض جميعاً من دون استثناء.

الحمد لله واهب النعم، رافع النقم، العزيز الوهاب، الذي لا يعزّ مَنْ عصاه، ولا يضلّ مَنْ اتّبع هداه، أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم، فما زال بالبشرية حتى أقامها على المحجة البيضاء، وخلّصها من سبل الغواية، وطرق الضلالة، وعلى آله وصحبه الأخيار، وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فهذه جولة سريعة تطرّقت فيها لموضوع إسلامي معاصر أصيل، بعنوان: "بين التعددية والتعايش الثقافي"، حاولت أن أُميط اللثام عن بعض القضايا، باستخدام المقارنة، مبتدئاً بالماضي إلى عصرنا الذي نعيش؛ لإظهار سماحة الإسلام، وقد خلصتُ من هذا البحث إلى مجموعة من النتائج والتوصيات التي أجمّلها في الآتي:

أولاً: أهم النتائج:

توصّل البحث إلى نتائج منها:

1. الثقافات تختلف وتتعدّد باختلاف الأمم والشعوب، من زمن آدم _ عليه الصلاة والسلام _ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ وذلك راجع إلى تباين العقول والأفهام، وتعدّد الشرائع والمِلل، واختلاف الأزمنة والأمكنة والواقع.
2. التعددية الثقافية تعني: وجود جماعات بشرية مختلفة؛ من حيث الشرائع والثقافات والقوميات والأجناس والأعراف والأفكار والتيارات والطُّروحات، ضمن إطار تنظيمي اجتماعي وقانوني وسياسي؛ يضمن منع تعدّي أيّ فئة على الأخرى، ويمنحها حقّ المواطنة، وهي قائمة على الإقرار بأنّ: البشر مختلفون في أفكارهم ومعتقداتهم، ولهم الحق في العيش بأمان دون فرض للآراء، أو إجبار على اعتناق المعتقدات.
3. التعددية لها إيجابيات كثيرة ينبغي الاستفادة منها، ومع ذلك لا تخلو من سلبيات يجب الحذر منها، أو نواقص تحتاج إلى بعض التعديلات.
4. القرآن الكريم أقر فكرة التعددية الدينية أو الثقافية، واعتبرها بمشيئة الله عز وجل، فالله _I_ هو الذي شاء أن يكون البشر على هذه الوتيرة، ومشيئة الله _عز

وجل_ لا تنفصل عن حكمته.

5. التعايش الثقافي: ضَرَبُ من التعاون المشترك الذي يقوم على أساس الثقة والاحترام المتبادَليْن، بطوعية واختيار، والذي يهدف إلى تحقيق أهداف مُتَّفَق عليها؛ من خلال تعلُّم العيش المشترك، والقبول بالتنوع، بما يضمن وجود علاقة إيجابية مع الآخر، ضمن ضوابط الشرع.

6. للتعايش الثقافي ضوابط؛ وخُلاصتها أنَّ للتسامح مع غير المسلمين حدوداً لا يجوز تخطيها؛ فلا يجوز القبول بكل ما من شأنه أن يمسَّ عقيدة المسلم، أو يَطعن بها، أو يُسيء إلى الإسلام وأهله، وفي الوقت ذاته يُمنَع تسفيه الآخرين وتحقيرهم، أو تحقير معتقداتهم، وإنما المطلوب مجادلتهم أو حوارهم بالتي هي أحسن.

7. النماذج الإسلامية للتعايش مع غير المسلمين في تاريخ الإسلام كثيرة جداً؛ من عهد النبي صلى الله عليه وسلم، مروراً بالسَّلف الصالح من بعده، حتى يومنا هذا، في مقابل استمرار الإساءات ورَفْض التعايش من الصليبيين واليهود تجاه المسلمين، فلا ينادون بالتعايش إلاَّ لمصلحة، مع حُبِّهم للسيطرة والاستبداد وإذابة ثقافات الشعوب المُستَضَعَّة.

8. في ظلِّ العَولمة الكونية وتطوُّر وسائل التكنولوجيا، ينبغي على المسلمين الاستفادة من كل التقنيات التي تخدمهم وتوصِل إليهم المَدنية، وتنقل ثقافتهم للآخرين، بحيث تكون منبراً حُرّاً، تظهر فيه الجوانب الإيجابية، والعمل على إيجاد تيار ثقافي إنساني مضاد يقف في مواجهة روح الهيمنة التي تنطوي عليها هذه العولمة فكرةً ونظاماً، وتطبيقاً وممارسةً، وفي التعامل مع الآثار المترتبة عليها، في انتظار بعث الحياة _من جديد_ في القوة العالمية الأصيلة؛ ألا وهي الإسلام، الذي يَمْتَلِك كل المؤهَّلات لقيادة الإنسانية ونشر مبادئ التسامح الحَقَّة.

ثانياً: أهم التوصيات:

خرج البحث ببعض التوصيات، هي:

1. الدعوة إلى تعميق مبدأ وحدة الكلمة بين شطري الوطن المحتلّ _ الضفة الغربية وقطاع غزة_ لأنّ ذلك هو أوّل أولويات التعايش الثقافي بين أبناء الدّين الواحد في فلسطين المحتلة، وذلك يتطلب أن تدور مناقشات جدّية وتقام ورشات عمل؛ لتحديد المفاهيم وتحويل القضية من إطارها النظري لواقع عمليّ .

2. البدء في دعم الجهود التي تحاول الإصلاح الداخلي قدر استطاعتها، ودعمها معنوياً ومادياً لإكمال مسيرتها.

3. تشكيل جمعية لمكافحة التمييز بكافة أشكاله، والسعي لترخيصها رسمياً، وتحديد أهدافها بدقة، ضمن مبادئ وتعاليم الإسلام السمحة.

4. ضبط المناهج التعليمية والكتب الدراسية، وتعليم فكرة التعددية والتعايش الثقافي للدارسين على ضوء القرآن والسنة، في إطار المحافظة على قواعد الإسلام وبقاء عزّة المسلمين، ومنع المتشدّدين الداعين لفكر الكراهية من بثّ سُومهم؛ عبّر برامج وخطط يمكن تنفيذها على أرض الواقع.

5. تشجيع الخطاب المعتدل في أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة؛ من خلال الحوار الراقي، ونبذ الكراهية والتعصب، وتوظيف إعلاميين من ذوي التقوى والاختصاص، لا من المرتزقة والأبواق والنفعيين.

6. احتضان المؤتمرات والملتقيات التي تقوم بمهمة رآب الصدع بين المذاهب والحركات والأحزاب؛ على أرضية الدّين الواحد والوطن المُشترك للجميع، مع دعم توصياتها.

7. تخصيص جائزة سنوية تُمنح لصاحب القلم الذي يهتم بنشر الأفكار التنويرية التي تعمّق روح الإخاء والتفاهم التي دعا لها رسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم.

8. عمّل بعض البرامج الثقافية والفكرية الخاصة؛ التي تدعو لفكرة المواطنة أو قبول الآخر، من مُنطلقٍ عصريّ يتواءم مع التحولات الجارية في العالم كله، في ظل

وفي الختام، فإنِّي أحمدُ الله _I_ على أنْ مَنْ عَلَيَّ بِإِثْمَامِ هَذَا الْبَحْثِ، سَائِلًا
الْمَوْلَى أَنْ أَكُونَ قَدْ أَحْطْتُ بِهِ الْإِحَاطَةَ الْمَقْصُودَةَ، وَأَعْتَذِرُ مِمَّا زَلَّ بِهِ الْقَلَمُ أَوْ شَدَّ بِهِ
الْفِكْرُ، فَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ فَمِنْ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَمَا كَانَ فِيهِ غَيْرُ ذَلِكَ فَمِنْ نَفْسِي
وَالشَّيْطَانِ، وَلَعَلَّ مَبْدَأَ التَّعَايِشِ الثَّقَافِيِّ الْيَوْمَ يَكُونُ خُطْوَةً أُولَى فِي طَرِيقِ شَاقٍ
وَطَوِيلٍ، تَقْطَعُهُ الْأَقْدَامُ السَّاعِيَةُ؛ لِتَحْرِيرِ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ مِنْ بَعْضِ رِيَاحِ
التَّعَصُّبِ الَّتِي لَا يَدْعُمُهَا التَّرَاثُ الْفِكْرِيُّ الْإِسْلَامِيُّ، وَلَا يُؤَيِّدُهَا التَّارِيخُ الْأَصِيلُ، وَلَا
يَسَانِدُهَا الْبُعْدُ الْإِنْسَانِيُّ الْفَطْرِيُّ الْقَوِيمُ.

